ملامح البلاغة الصوتية في التراث النقدى

دكتور/ صالح أحمد عبد الوهاب
جامعة الأزهر –كلية البنات الأزهرية
بالعاشر من رمضان المدرس/ بقسم البلاغة والنقد

المقدمة :

اللهم إنَّا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب لما نحسن، ونصلي ونسلم على ينبوع البلاغة وكمال البيان، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد...

فقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن البلاغة الصوتية، وما ينتج عنها من قيم جمالية وتنغيمية وشعورية تؤثر – بدورها– في حاستي السمع والتذوق ، ونظراً لهذه المكانة السامية اتجهت بعض الدراسات الحديثة إلى دراستها ومناقشتها وترسيخ مفهومها فى ميدان الدرس البلاغي؛ باعتبارها فرعاً من علم اللسانيات الحديثة، بل إنَّ من أصحاب هذه الدراسات المعاصرة من حثَّ على التوجه إليها، وجعلها من أهم الموضوعات الواجب دراستها فى البحث البلاغي؛ نظراً لجدها وبكورها وطرافتها، أمثال الأستاذ: أمين الخولى، والدكتور: أحمد مطلوب ، والدكتور: بدوى طبانة([1]).

ونعني بالبلاغة الصوتية هنا ما يتجاوز مفهوم علم الأصوات الفسيولوجي الذى يعرض لطبيعة الحرف ومراحل خروجه وصفاته من الجهر، والهمس، والشدة، والرخاوة، والاطباق، والانفتاح، والاستعلاء، والانخفاض ... وإنما المراد في هذه الدراسة ما ينتج عن الصوت من قيم جمالية وتعبيرية وشعورية تسهم بدورها في تأدية المعنى والتعبير عن الأغراض ، ومن ثمَّ توجهت الدراسة إلى التراث النقدى بعيداً عن الناحية الصوتية التقليدية التي أسَّس لها الخليل وسيبويه، التي لا يقلل أحد من قيمتها ولا يمكن إغفالها.

ولما كان للعرب عناية فائقة بتخير الألفاظ وتجويدها؛ من خلال حديثهم عن معايير الجودة فيها، وما تحمله الأصوات – عندهم – من دلالات ومعان، وغير ذلك من الملاحظات الصوتية التي أشادت بها الدراسات الصوتية الحديثة (٢) أحببّت أن يكون هذا هو محور حديثي ؛ لإظهار مدى القدر الذى أسهم به النقاد في ترسيخ هذا المفهوم، من خلال الوقوف مع نظرياتهم النقدية المتعلقة بالحديث عن القيم التعبيرية والشعورية للصوت ، وما يحدثه الجرس لدى المتلقي من استحسان السمع له أو استكراهه ، مع الوضع في الاعتبار أنهم لم يعنوا بوضع المصطلحات ، وإنَّما جاء حديثهم مجرد إشارات وشذرات في بطون مؤلفاتهم وفي ثنايا كتبهم ، فأحببت _كماقلت_ أن أللم هذه الشذرات والتلميحات في بحث مستقل، يرصد أهم ملامح البلاغة الصوتية في التراث النقدى، وكيف كان تناولهم ومعالجتهم لهذا الموضوع ، وكيف يمكن الاستفادة من هذه الإسهامات فى مجال تحليل النص؟، وذلك تحت عنوان" ملامح البلاغة الصوتية فى التراث النقدى"

وقبل المضي قدماً في تتبع هذه الملامح تجدر الإشارة إلى أن البحث لا يتناول موسيقى الشعر، ولا المحسنات اللفظية، وأثرها الصوتى؛ كالجناس والسجع والتقسيم... وغير ذلك من الفنون التي استقرت ووضعت لها ضوابط فى علم البلاغة.

وإنَّما رأيت لتمام الفائدة أن يتناول البحث عدة ملامح من أهمها معايير الجودة فى الألفاظ عند النقاد العرب، وعلاقة ذلك بالناحية الصوتية ، وحديثهم عن فصاحة الكلمة والعيوب المخلة بها، وأثر ذلك فى الصوت، وأخيراً أثر الجرس في حاستي السمع والتذوق.

فإن وفقت فى رصد هذه الملامح، وإبراز جهود علمائنا العرب فى ميدان البلاغة الصوتية فذلك فضل من الله ومنّة، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى لم أدخر وسعاً.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الملامح الصوتية عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ)

يعد الجاحظ من أوائل من ألمح إلى أهمية الجانب الصوتي ، من خلال ما سطره فى كتابه " البيان والتبيين" ؛ حيث عني الجاحظ بالحديث عن اللفظ ومعايير الجودة فيه ، فجعل مدار ذلك في كون اللفظ كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، فمتى اجتمعت له هـذه الصـفات حبّـب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، وهشّت له الأسماع، وارتاحت له القلوب ، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع فى الأفاق ذكره"([٣]).

وكرم اللفظ، وتخيّره، وسلامته من الفضول، وبراءته من التعقيد، كلها صفات توجب استحسان اللفظ، وتقرّبه من النفس، ومن هنا استحسنت العرب بعـض الألفاظ لكرمها فى نفسها، وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها، واسـتهجنت بعضها الآخر، فمن ذلك استحسانهم للفظتي" الفؤاد" و" القلب " ، واسـتقباحهم لفظ" الطحال" – مع ما بينهم من مناسبة – حتى قيل :" ما دخل الطحال شيئاً إلا أفسده" ([٤]) وما ذلك إلا لاستهجانه فى نفسه ، وصعوبة الانتقال من همزة الوصل إلى الطاء المضمومة، كما استحسنت لفظتي " المزنة" و" الدّيمة" واستقبحت لفظ" البعاق" – وكلها تحمل معاني متناسبة، ويجمعها حقل دلالي واحد – وهو المطر– ـــ وهذا مرده إلى الذوق السليم والطبع القويم وليس خاصاً بأحد دون آخر، مما دفع ابن الأثير إلى القول بأنَّ: " حسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيـد دون عمرو ، أو إلى عمرو دون زيد؛ لأنّه وصف ذوقيّ لا يتغير بالإضافة ، ألا ترى أنّ لفظة" المزنة " مثلا حسنة عند الناس كافّة ـــمن العرب وغيرهمـــ وهلـمّ جـرّا، لايختلف أحد في حسنها ، وكذلك لفظة" البعاق" فإنها قبيحة عند الناس كافـة ـــ من العرب وغيرهمـــ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجاً لها عن القبح ، ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إيّاها ، بل يعاب مستعملها، ويغلظ له النكير حيث استعملها"([٥])

ولايخفى أن قبح هذه الكلمات أو استحسانها مرده للناحية الصـوتية ، فـإنَّ الذوق السليم يستحسن لفظة " المزنة" و" الدّيمة" لخفتهما على السمع ، وتقبـل النفس لهما، وينفر من كلمة " البعاق" لثقلها على السمع وصعوبة النطق بها، فإنَّ

في اجتماع الباء المضمومة ، والعين المفتوحة الممتدة، والقاف الحلقية ما يوحي بصورة المتقيىء عند النطق بها، وتلك دلالة تتنافى ما تحمله اللفظة من معنى ، فالألفاظ ليس مجرد أصوات جامدة لا حياة فيها، بل هى أصوات نابضة تحمل دلالات وإيحاءات ، وإلا لما استحسنت العرب بعض الألفاظ كالقلب والفؤاد والكبد والنحر والجيد والترائب والصدر والثغر والثنايا والريق، واستقبحت المخ والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن والأمعاء([6])

وهذه الإيحاءات والدلالات لايخطئها باحث البلاغة ومن هو مهتم بقيم الألفاظ وجمالها، فإذا استقام له معرفة الحسن من القبيح من الألفاظ، وأدرك ذلك بحسه وذوقه، فعليه أن يدرك أن من الألفاظ كذلك ما يشترك في استحسان السمع وخفة النطق ، ومع ذلك يفضل بعضها على بعض، وما ذلك إلا لكرم اللفظ في ذاته كما هو مفهوم من كلام الجاحظ السابق، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو هلال العسكري قائلاً:" وتمييز الألفاظ شديد...أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن فضل الزيدي، عن إسحاق الموصلي، عن أيوب بن عبابة أنّ رجلاً أنشد ابن هَرمة قوله :

بالله ربّك إن دخلت فقل لها * هذا ابن هرمة قائماً بالباب

فقال: ما كذا قلت ، أكنت أتصدق؟! قال: فقاعداً...قال: أكنت أبول ؟! قال: فماذا؟!...قال: واقفاً ... ليتك علمت مابين هذين من قدر اللفظ والمعنى([7])

ومن ثم اختلفت درجات الألفاظ عند الجاحظ ، فمنها الفصيح ومنها الغريب الوحشي ومنها السوقي المبتذل ، ومدار الاستحسان في ذلك كله يكمن فى فصاحتها من حيث تلاؤم حروفها وانسجامها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها، وهذه معايير صوتية من الدرجة الأولى ، وإلّا فالغريب الوحشي هو نوع من الفصيح ، ومع ذلك يمجّه السمع وتنفر منه الأذن، ويستقبحه الذوق السليم، ولا يلائم إلا أهل الغريب من البادية، ومن ثمّ قسَّم الجاحظ الألفاظ بناء على هذه المعايير إلى طبقات، فنراه يقول:" وكما لاينبغي أن يكون اللفظ عامياً ، وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي ، وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم فى طبقات"([8])

فنحن أمام طبقات ثلاث من الألفاظ، الطبقة الأولى: الكلام العامي الساقط الذى لا تتوفر فيه معايير الجودة التى ذكرها الجاحظ، ويقترب من هذه الطبقة أصوات الحيوانات والطيور والريح التى لا توصف بالفصاحة، والطبقة الثانية: الألفاظ الحسنة الواضحة، المتداولة الاستعمال، المألوفة على الأذهان، الخالية من التعقيد، البريئة من الفضول، والطبقة الثالثة: الألفاظ الوحشية الغريبة .

والطبقة الأولى: ألفاظها غير فصيحة فى ذاتها؛ فهي أشبه – كما قلت – بأصوات الحيوانات والطيور والريح، والطبقة الثالثة كذلك، ولكن عدم فصاحتها لاعتبارات أخرى ؛ وهي اختلاف الأزمنة والأمكنة ، فهي فصيحة بشرط أن يكون المتكلم بدوياً أعربياً، فإنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس؛ وذلك لأنَّ الأصوات تحاكي أصحابها، كما يقول الجاحظ:" ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام العرب فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنَّك إن غيرتها؛ بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين، خرجت من تلك الحكاية، وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بندرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له، ويذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها"(٩)

وتلك ملاحظة صوتية تبرز قيمية الجرس ودلالاته فى تصوير المعنى والتعبير عن المعاني والأغراض، فجرس البدوي لايحاكي جرس العامي حتى ولو كان الصوت واحداً، وأي تغيير فى مخرج الصوت – عند حكايته – يفسد الدلالة ويذهب بالمقصود... وهكذا لايشبه صوت صوتاً ولا جرس جرساً، فإذا وقع فى خاطر أو هجس فى ضمير أن الجرس الصوتي الواحد لا يختلف باختلاف الأشخاص و لم يفرق باحث البلاغة بين المقامين ؛ فحكى أصوات البدوى كما يحكي أصوات العامة، أو عرض أصوات العامة فى معرض الخاصة فإنّ عليه – كما يقول الجاحظ – فضل كبير؛ لإفساده الإمتاع وذهابه ببلاغة الكلام؛ لأن دور البلاغي يتجاوز حد الإفهام إلى الإمتاع، ولا يتحقق الإمتاع بدون لفظ فصيح، وهذا ما

حاول الجاحظ التأكيد عليه من خلال حديثه عن معايير الجودة في الألفاظ، وفي ملاحظته النقدية التي تعنى بالفصاحة، وهذا يعلل لنا رفض الجاحظ لتعريف العتابيّ للبلاغة " كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ"(١٠) بدعوى أنّ ذلك التعريف يقلل من قيمة البيان واللسان، لأننا نستطيع أن نفهم إشارات الأخرس وحمحمة الفرس وعواء الكلاب وغيرها من الحيوانات والطيور، فاشترط الجاحظ في الإفهام أن يكون بلفظ فصيح؛ لأنَّ عمومية التعريف تجعل اللكنة، والفصاحة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون، والمعرب، كله سواء وكله بياناً، وكيف يكون ذلك كله بيانا؟! (١١) فنراه يقول:" وإنما عني العتابي : إفهامك حاجته على مجارى كلام العرب الفصحاء" (١٢)

وهنا تظهر بوضوح ملاحظات الجاحظ الصوتية ، وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الفصاحة عنده، باعتبارها جزءاً من قيم اللفظ الجمالية ، فهو يرى أنّ الفصاحة شرط في معايير الجودة عنده، وشرط كذلك في البلاغة، ومن ثمّ شرع في بيان الحروف التي يؤدي اجتماعها إلى ثقل على اللسان وصعوبة في النطق ، وهو حديث يتعلق بالجانب الصوتي من حيث التناغم والانسجام بين الحروف، يقول الجاحظ:" ... فأمّا فى اقتران الحروف ، فإنَّ الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل بها على الغاية "(١٣)

وفي هذا النص الموجز للجاحظ ما يفتح باب الاجتهاد أمام باحثي البلاغة فيما يتعلق بالأصوات التي تثقل على اللسان ويصعب النطق بها، ولا نعرف لها سبباً غير استهجان السمع لها ونفوره منها، وهو أن من الأصوات ما لايجوز اجتماعها، فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير ، وفي ذكر القليل ما يستدل به على الكثير.

ثم نراه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في إدراك المؤثرات التي تؤثر على الحروف من الناحية الصوتية؛ فيدرك الجاحظ ما للأسنان والشفتين واللسان من أثر

على الحروف ، ويعرض لذلك بشيء من التفصيل يتلاءم مع طبيعة عصره ، ذاكراً في ذلك أقوال أهل العلم والخبرة :" وقال أهل التجربة : إذا كان في اللحم الـــذى فيه مغارز الأسنان تشمير، وقصر سمك ذهبت الحروف وفسد البيـــان([14]) ، وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يفرغه ويصكه، و لم يمر فى هواء واسع المجـــال ، وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفـــر ، والجـــزء المحتمل"([15])

فالجاحظ تنبه إلى أن عملية النطق بالصوت عملية مركبة وليست مجـــرد ضـــم الشفتين إلى بعضهما ، أو تحريك اللسان في وضع معين ، أو خروج الهـــواء عـــبر الجوف ، وإنما هي مجموع ذلك كله، فنراه يقول:" إذا كان فى اللحم الذى فيـــه مغارز الأسنان تشمير، وقصر سمك ذهبت الحروف وفسد البيـــان ، وإذا وجـــد اللسان من جميع جهاته شيئاً يفرغه ويصكه، و لم يمر فى هواء واسع المجال ، وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر ، والجزء المحتمل "

ثم يذكر أقوال العلماء فى بيان أثر الأسنان على الألفاظ :" وقال ســـهل بـــن هارون :" لو عرف الزنجيّ فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف وتكميل آلـــة البيان لما نزع ثناياه ، وقال عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ في سهل بـــن عمـــرو الخطيب : يارسول الله انزع ثنتيه السفليين حتى يلدغ لسانه ، فلا يقـــوم عليـــك خطيباً أبداً ، وإنّما قال ذلك لأنّ سهلاً كان أعلم من شفته السفلى "([16])

ولا يخفى ما لهذه الأعضاء من أثر واضح فى مخرج الحرف ، فيســـلم الحـــرف ويسهل النطق به كلما سلمت آلة البيان، ويتعثر ويثقل النطق به إذا اعتلت ، ومن ثم شرع الجاحظ فى بيان العلل التى تعتري اللسان ، ولا أكون مبالغاً إذا قلـــت إن حديثه عن هذه العلل يعد من أوليات الملامح الصوتية التي أفادت منها الدراسات الحديثة، يقول الجاحظ:" ويقال في لسانه حبسة: إذا كان الكلام يثقل عليـــه، و لم يبلغ حد الفأفاء والتمتام ([17]) ويقال في لسانه عقلة: إذا تعقّل عليـــه الكـــلام ، ويقال في لسانه لكنة: إذا ادخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول، فإذا قالوا: فى لسانه حككلة، فإنّما يـــذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال"([18])

و لم يكتف الجاحظ ببيان هذه العلل بل تحدث عن الحروف التي يدخلها اللثغة وعددها أربعة وهي القاف والسين واللام والراء ([١٩]) وسجل في ذلك ملاحظاته التي تعكس لنا اهتمامه بجرس الحروف ودلالتها، يقول الجاحظ:" والصوت: هو آلة اللفظ والجوهر الذى يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكوّن حركات اللسان لفظا ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكوّن الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف"([٢٠])

فهو يرى أنّ الصوت: هو آلة اللفظ والجوهر الذى يقوم به التقطيع، وأن نعوت اللفظ من الجزالة والطلاوة والعذوبة والرقة ما هى إلا قيم جمالية ونغمية للأصوات تهش النفس وتطرب عند سماعها، وهذا ما لانجده عند الفأفاء والتِمتام والألكن والأعقل والأحكل والألثغ والمحبوس؛ لأنهم لايعدون فصحاء.

وبعد هذا يطرح الباحث سؤالاً ، هل كان حديث الجاحظ عن معايير الجودة في الألفاظ، ومخارج الحروف، والعلل التي تعتري اللسان، والحروف التي يدخلها اللثغة، وأثر الأسنان واللسان والشفتين إلا إدراكاً لقيمة الجرس الناتج عن الصوت، وما يحمله من دلالات معنوية فى ذهن السامع؛ من خلال الأثر الحسي الناتج عن حاستي السمع والتذوق ؟! ولعل فيما توصلت إليه الدراسات الحديثة ما يفي بالإجابة على هذا السؤال ، يقول بعض الباحثين مشيداً بجهود الجاحظ الصوتية: " ولعل من أدق تلك الملاحظات ما يتعلق بمخارج الحروف الصوتية ، فقد عدّ هذه المخارج جزءاً من قيمة اللفظ الجمالية ، وحسن أدائها ؛ حيث يمكن بواسطتها تمييز سلامة النطق باللفظ حال سماعها"([٢١])

ولا يفوت الجاحظ وهو يتحدث عن الجرس، ونعني به " الصوت " عنده أن يذكر أثر التناغم والانسجام الصوتي في اختيار بعض الألفاظ دون بعض ، ذاكراً في ذلك أن الناس قد تستخف ألفاظاً وتستعملها مع أنّ غيرها من الألفاظ أحقّ بذلك منها ، وما ذلك إلا لخفتها وقربها من النفس، وفي ذلك يقول الجاحظ:" وقد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ؛ ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن " الجوع " إلا في العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون " السغب" ويذكرون "الجوع" فى حال

القدرة والسلامة، وكذلك ذكر " المطر" لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر " المطر و" ذكر " الغيث""([22])

ومن خلال هذه المقاييس التي أسس لها الجاحظ ندرك سبب استحسان البلاغيين للفظ الغصن دون العسلوج، ولفظ المدامة دون لفظ الإسفنط، ولفظ السيف دون لفظ الخنشليل ولفظ الأسد دون لفظ الفدوكس، مما دفع ابن الأثير الذي أفاد من ملاحظات الجاحظ الصوتية أن يقرّر:" أنَّ الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ؛ لأنها مركبة من مخارج الحروف ؛ فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح ... وقد رأيت جماعة من الجهَّال إذا قيل لأحدهم: إن هذه اللفظة حسنة، وهذه قبيحة، أنكر ذلك، وقال: كل الألفاظ حسنة ، والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومن يبلغ جهله إلى أن لايفرق بين لفظة " الغصن" ولفظة " العسلوج " وبين لفظة " المدامة " ولفظة " الإسفنط " وبين لفظة " السيف " ولفظة " الخنشليل " وبين لفظة " الأسد " ولفظة " الفدوكس" ، فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب بجواب ، بل يترك وشأنه"([23])

فإذا كان اللفظ سهل المخرج حسن الرصف شديد الأسر قبله السمع وأنس به ، وإن كان غير ذلك انسدت طرقه ونفاه واستوحش عندحسه به، وصدىء له وتأذى به كتأذي سائر الحواس كما يقول ابن طباطبا([24])

وهل كانت العرب فيما أبدعوه لنا من فنون القول تعوّل على شيء في تهذيب كلامها غير السماع والتذوق ، وذلك لأنِّ السماع، كما يقول أبو هلال العسكري:" يتشوف الصواب الرائع، ويتزوى عن الجهد الهائل، ولما كانت الأصوات مدركة بالسمع، فهى تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر "([25]) ومن ثم يكون التفاضل بين لفظتين نجد لإحداهما تناغماً وانسجاماً متصوراً فى النفس دون الأخرى.

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أن الجاحظ بحديثه عن الفصاحة قد نبَّه إلى بعض الملامح الصوتية التي أفاد منها المتأخرون؛ فهو أول من تحدث عن نعوت الألفاظ

التي عرفت بعده بشروط الفصاحة ، وهو أول من نبّه إلى قيمة الجرس الصوتية، كما هو واضح من قوله:" والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذى يقوم به التقطيع"... وهو أول من تنبّه إلى أثر السمع والذوق في إدراك قيم الألفاظ ودلالاتها ، وهو ما عرف في علم اللسانيات الحديث بعلم الأصوات الوظيفي .

الملامح الصوتية عند ابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢ هـ)

لعل مما يحسب لابن طباطبا العلوي في مجال الدرس الصوتي احتكامه إلى السمع والذوق في إدراك قيمة الصوت الحسية ، وهو ما عرف عند المتأخرين بضوابط الجرس الحسية، لأنَّ الجرس كما يقول أحد الباحثين " قيمة جوهرية فى الألفاظ وبنائها، وهو أداة التأثير الحسية ، بما يوحيه من دلالة معنوية في ذهن السامع ، ومن خلال هذه القيمة دخل الجرس حيز النقد والبلاغة"([٢٦]) .

ولما كان الجرس قيمة جوهرية في الألفاظ بما يحمله من دلالات ومعان، ولما كان الجرس كذلك هو أداة التأثير الحسية الناتجة عن حاستى السمع والتذوق في ذهن السامع عرض ابن طباطبا لكيفية إدراك هذه القيمة الجمالية في الألفاظ قائلا:" إنّ كل حاسة من حواس البدن تتقبل ما تتصل بها مما طبعت له؛ إذا كان وروده عليها وروداً لطيفا باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها، فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث ، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ، ويمج البشع المر، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم ، وتتأذى بالخشن المؤذي ، والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المألوف، ويتشوف إليه ويتحلى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر وينفر منه ويصدأ له ، فإن كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً، وصفى من كدر العي، مقوماً من أود الخطأ واللحن، سالماً من جور التأليف، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً، اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له وأنس به ، وإذا ورد عليه على ضد هذه الصفة ، وكان باطلاً محالاً مجهولاً انسدت طرقه ونفاه واستوحش عند حسه به وصدئ له وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها" ([٢٧])

فانظر كيف احتكم ابن طباطبا إلى السمع والذوق في إدراك قيم اللفظ الجمالية؟! لافتاً النظر إلى أنّ التمايز بين الألفاظ يكون بخلوها من الكدر واللحن والخطأ والثقل والتنافر وغير ذلك من الصفات التى عدت من العيوب المخلة بالفصاحة ، ويستوي فى ذلك الألفاظ حال إفرادها أو تركيبها، فإذا تآلفت مخارج الحروف حسنت الكلمة سواء أكانت مفردة أو مركبة، وإذا تنافرت واستكرهها السمع قبحت سواء كانت مفردة أو مركبة ، وهذه ملاحظة تستوقف باحث البلاغة فلا أحد ينكر قبح " العشنط" و" والعشنق" و" العنطنط" و" الجسرب" و" والشوقب" و" السلهب" و" الشوذب" و" الطاط" و" الطوط " و" والقاق" و" القوق " سواء كانت هذه الألفاظ مفردة أو مركبة وما سجله ابن طباطبا من ملاحظات فى القرن الرابع الهجرى يقترب من الدراسات الحديثة فى القرن الحادي والعشرين، يقول أحد الباحثين: وهوتحديد يدخل فى صميم ماهية الجرس ؛ لأنَّ قيمة الألفاظ المفردة والمركبة تعتمد مخارج الحروف في الاستحسان والاستهجان ، فإذا ائتلفت مخارج حروف الكلمة المفردة حسنت، وكذلك إذا كانت مركبة ومنظومة مع غيرها من الكلام ، وأما إذا تنافرت حروفها فهي مستقبحة، وكذا إذا ركبت مع غيرها، فإذا تنافرت مخارج الحروف في ألفاظ الكلام صعب نطقها وعد من باب رديء الكلام " (٢٨)

ملامح البلاغة الصوتية عند القاضى الجرجانى (ت٣٦٦)هـ

في آواخر القرن الرابع الهجري يطالعنا القاضي الجرجاني ببعض الملاحظات النقدية التي تعوّل على السمع والذوق في إدراك القيم الجمالية والتعبيرية للصوت ، وإذا كانت الألفاظ هي عبارة عن أصوات فى عرف المتقدمين ، فلا يفوت القاضي الجرجاني أن يسجل أولى ملاحظاته الصوتية ، وهي أن هذه الأصوات قابلة للتفاضل والتمايز، والاحتكام في ذلك للسمع والذوق ، فنراه يقول :" وإنَّما الكلام أصوات، محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في النفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها بانتظام المحاسن

وإلتئام الخلقة وتناصف الأجزاء وتقابل الأقسام ، وهي أحظى بالحلاوة وأدعى إلى القبول ، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم ... وإن قاسيت واعتبرت ونظرت وفكرت لهذه المزية سبباً ... ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة – وهى مقصورة عن الأولى في الإحكام والصنعة ، وفي الترتيب والصياغة، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، وينتظم أسباب الاختيار–– أحلى وأرشق وأحظى وأوقع ؟! ...لكان أقصى ما في وسعك ، وغاية ما عندك أن تقول: موقعه فى القلب ألطف وهو بالطبع أليق"([٢٩])

فالأصوات عند القاضي الجرجاني ليست ألفاظاً مجردة، بل هي ألفاظ موحية ومصورة لما يستكن في الضمائر وخلجات النفس، ومن ثم تنبه القاضي الجرجاني إلى علة التفاوت في الأذواق ، وأن الإنسان ربما يعرف طبعه من صوته وجرسه ونغمته ؛ فألفاظ البدوي تباين ألفاظ الحضري ، وعليه" فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام، وعر الخطاب ، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفى جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعد ذلك"([٣٠])

وتلك ملاحظة دقيقة فى مجال الدرس الصوتى الحديث خاصة، والدراسات الأسلوبية عامة، فاختلاف جرس الألفاظ عنده دليل على تمايز الكلام وتفاوته ، وذلك بالقدر الذى يثيره الجرس من تنغيم وقيم جمالية ، ويشهد لما قاله القاضي الجرجاني ما روى عن على بن الجهم أنه لما قدم على المتوكل مدحه بقوله:

أنت كالكلب في حفظك للود * وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمناك دلوا * من كبار الدلاء كثير الذنوب

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة ألفاظه ، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبّهه به؛ لعدم المخالطة وملازمة البادية، فأمر له بدار على نهر دجلة قرب الجسر ، فيها من ترف المدينة ومناظر الطبيعة ما يغذي الروح والبدن . والأدباء

والفضلاء يتعاهدون مجالسه ومحاضراته ، وبعد مدة استدعاه الخليفة إلى مجلسه، فحضر وأنشده قصيدته التي يقول فيها: ([31])

عيون المها بين الرصافة والجسر * جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم و لم أكن * سلوت ولكن زدن جمراً على جمر

فقال المتوكل : لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة" ([32])

وكما تحدث القاضي الجرجاني عند أثر الجرس في الكلمة عند إفرادها تحدث كذلك عن أثرها الصوتي عند تركيبها، وبيَّن أن الأفضلية تكون في الألفاظ عند تركيبها أكثر منها عند إفرادها وساق على ذلك شواهد منها لفظة" الأخدع"([33]) التي حسنت في استعمالات أبي تمام في بعض المواضع وقبحت في بعضها، فمن المواضع التي جاءت الكلمة قلقة في سياقها نابية عن أخواتها قوله:

سأشكر فرجة الّلبب الرخيّ * ولين أخادع الزّمن الأبيّ([34])

وقوله: ([35])

يادهر قوّم من أخدعيك فقد * أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله: ([36])

فضربت الشتاء فى أخدعه * ضربة غادرته عوداً ركوباً

فلا يخفى فى السياقات الثلاثة أنّ كلمة" الأخدع " قلقة في سياقها، غير متناغمة مع أخواتها ، وذلك مرده إلى أمرين :

الأول: يتعلق بطبيعة الكلمة في ذاتها ، والآخر: يتعلق بها عند تركيبها.

أما الأول فظاهر؛ فهى من الألفاظ المستهجنة فى الشعر التى لا تقل فى استهجانها واستكراه السمع لها عن ألفاظ المخ والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن والأمعاء فالألفاظ – كما قلت – ليس مجرد أصوات جامدة لا حياة فيها، بل هى أصوات نابضة تحمل دلالات وإيحاءات ، وإلا لما استحسنت العرب بعض الألفاظ كالقلب والفؤاد والكبد والنحر والجيد والترائب والصدر والثغر والثنايا والريق، واستقبحت المخ والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن والأمعاء([37])

والآخر: يتعلق بها حال تركيبها وهو الإفراط فى تكلف الاستعارات حيث جعل أبو تمام للدهر عروقاً فى البيت الأول، وبالغ فى البيت الثانى فجعلها مائلة وطالبه بتقويمها، وفى هذا مالا يخفى من المبالغة ، بعكس إثبات الأرداف والصلب والعجز فهي من الأعضاء المحمودة فى الشعر، ومن ثمّ لم يعب على امريء القيس قوله في وصف الليل: (٣٨)

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازاً ونــاء بكلكل

يقول القاضي الجرجاني :" ومثل هذه الألفاظ: قول امرىء القيس؛ يريد الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازاً ونــاء بكلكل

فجعل له صلباً وعجزاً وكلكلاً، لما كان ذا أول وآخر وأوسط ، مما يوصف بثقل الحركة إذا استطيل، وبخفة السير إذا استقصر، وكل هذه الألفاظ مقبولة غير مستكرهة، وقريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة ... وإذا قال أبوتمام

يادهر قوّم من أخدعيك

فإنَّما يريد: اعدل ولا تجر، وأنصف ولا تحف، لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل، وأن يقذفوه بالعسف والظلم والخرق والعنف ، وقالوا: قد أعرض عنّا، وأقبل على فلان ، وقد جفانا وواصل غيرنا، وكأنَّ الميل والإعراض إنَّما وقع بإنحراف الأخدع، وازورار المنكب، استحسن أن يجعل له أخدعاً، وأن يأمره بتقويمه، وهذه أمور متى حملت على التحقيق وطلب فيها محض التقويم أخرجت عن طريقة الشعر، ومتى اتبع فيها الرخص ، وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام ، وإنَّما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف ، والاقتصار على ما ظهر ووضح"(٣٩)

وهذا يؤيد ما قلناه أنّ من الألفاظ ما لايحسن فى الشعر حتى ولوكان من مخارج متآلفة، ومرد ذلك لحاستي السمع والذوق، فما استحسنه السمع فهو الحسن وما استقبحه السمع فهو القبيح، وما قبلته الأذن قرب من الأذهان، وهشت له الأسماع والنفوس، وما مجّته ونفرت منه بعد عن الأذهان، وثقل على الأسماع والنفوس،

وأمّا ما استشهد القاضي الجرجاني به على حسن استعمال " الأخدع" في قول أبي تمام:

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف * تميل ظباه أخدعي كل مائل([٤٠])

فلا أراه إلا زيادة فى الثقل ؛ أمَّا من حيث التركيب فلبقاء التكلف فى الأستعارة حيث جعل العروق تتمايل وتتراقص، وهى صورة غريبة فى التعبير عن الفرح، وأما من حيث طبيعة الكلمة فازدادت ثقلاً بإضافتها إلى ياء المتكلم " أخدعي " ([٤١])

الملامح الصوتية عن ابن جني (ت٣٩٢هـ)

يعد ابن جني هو أول من ربط بين الأصوات والموسيقى من خلال تشبيه مخارج الأصوات بالعود والناي ، فكما أنّ كل مخرج يعطي صوتاً، فكذلك كل مقطع يعطي نغمة مختلفة عن اختها، وأجرى ابن جني ذلك من خلال خطوات إجرائية عملية يمكن تطبيقها، فنراه يربط بين جرس الحروف وبين مقاطعها، فكلما اختلفت المقاطع اختلف الجرس، يقول ابن جني:" ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس فى حروف المعجم باختلاف مقاطعها، التي هى أسباب تباين أصدائها، ما شبه بعضهم الحلق والفم بالناي ، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجاً، كما يجري الصوت فى الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة ، وراوح بين عمله ، اختلفت الأصوات ، وسُمِع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم باعتماده على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة"([٤٢])

ثم نراه بعد ذلك يسلك طريقة في كيفية إدراك جرس الحروف من خلال الإتيان بها ساكنة، ثم إدخال همزة الوصل عليها مكسورة، يقول ابن جني:" اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك ؛ ألا ترى أنك تبتدىء الصوت من أقصى حلقك ، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت ، فتجد له جرساً ما ، فإن انتقلت منه راجعاً عنه، أو متجاوزاً له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هناك صدى ما ، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره ،

وإذا جزت إلى الجيم سمعت غير ذنيك الأولين، وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكناً لا متحركاً؛ لأنَّ الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجتذبه إلى جهة الحرف الذى هى بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله ؛ لأن الساكن لا يمكن الأبتداء به فتقول: إكْ ، إقْ ، إجْ، وكذلك سائر الحروف"([٤٣])

ومن خلال ذلك يمكن لباحث البلاغة أن يستفيد من ملاحظات ابن جني؛ و يدرك أثر الصوت وجرسه فى خدمة الفكرة وتأدية المعنى، كما أدرك ابن جنى قيم الألفاظ الصوتية وتباينها فى السمع قياساً على تباين نغمات الناي والعود فى السمع يقول أحد الباحثين:" وقيم اللفظ الجمالية تسجل حضورها فى أذهاننا كالأنغام ، وواسطتها الأذن ، وكما تستجيب حواس الإنسان الأخرى لمؤثراتها تستجب الأذن للصوت الحسن وتنبو عن القبيح"([٤٤])

ويظهر لنا من تعريف ابن جنى للغة أيضاً اهتمامه بالصوت، حتى أنه حصر اللغة في أصوات يؤتى بها للتعبير عن الأغراض، حتى ولو كانت هذه الأصوات ساذجة بسيطة في نشأتها كدوي الريح وخرير الماء ونهيق الحمار ونعيب الغراب ، فنراه يقول:" أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "([٤٥]) فنجد عنده اهتماما بالمنطوق يفوق المكتوب ؛ لأنّ المنطوق هو عين المعنى، بخلاف المكتوب فقد لا يصور المعنى، حتى ولو كان هذا المنطوق لغة بدائية أو لهجة من اللهجات، وهذا فى مجمله يتفق مع ما تنادي به اللسانيات الحديثة؛ التي لا تفاضل بين اللغة واللهجة، ولا بين البدائي من اللغات واللهجات والمتحضر منها، وإنما تهتم بهما على سواء.

ولم يكتف ابن جني بالتنظير بل ربط بين جرس الحروف في الكلمة وبين معانيها التي عبر بها عنها من خلال بعض الأمثلة التطبيقية، فساق مثلاً على ذلك بـ" النضح " و " النضخ " و" القضم" و " والخضم" ، وبيّن أنّ صوت القاف أقوى من صوت الخاء، ومن ثم استعمل صوت القاف مع " القضم " الذي يكون في أكل الشيء اليابس، الذي يحتاج إلى قوة، و استعملت صوت الخاء الضعيف في " الخضم" الذي يكون في أكل الشيء الرطب، وبذلك يكون الصوت قد شاكل

فعله الدال عليه، يقول ابن جنى:" فإنّ كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا" قضم" في اليابس، و" خضم" في الرطب، وذلك لقوة " القاف" و ضعف " الخاء" ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف ، وكذلك قالوا:" صرّ الجندب" فكرر الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا صرصر البازى فقطعوه"(٤٦)

و لم يكتف ابن جني بتسجيل هذه الملاحظة الدقيقة ، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيبصر بحسه الناقد و فكره الثاقب أنَّ من الألفاظ ما يكون ترتيب أصواتها موافقاً وملائماً لترتيب أحداثها تقديماً و تأخيراً فنراه يقول: " ... إنّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف و تشبيه أصواتها بالأحداث المعبر بها عنها ، وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه؛ سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب، وذلك قولهم:" بحث" فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض ، و" الثاء" للنفث والبث للتراب ، وهذا أمر تراه محسوساً محصلاً"(٤٧)

وكما عنى المتقدمون بالحديث عن مخارج الحروف وطبيعتها وصفاتها وعلاقة ذلك بالصوت، أطال ابن جنى كذلك الوقوف مع هذه الجزئية وكان له إسهامات انفرد بها عمن سبقه، والتى كان منها أنه اعتبر الحركة جزءاً من الصوت ، يحسن اللفظ بها ويقبح بقبحها، فكيف بالحروف بل وكيف بالكلمة مع التركيب ؟! ومما يدل على ذلك عناية العرب بتسكين الحرف الثاني بعد المضموم أو المكسور دون المفتوح مراعاة فى الأغلب الأعم للتخفيف ، يقول ابن جنى:" ... ومنه إسكانهم نحو رسْل، بخلاف عَجُز، وعَضُد ، وظَرُف ، وكَرُم ، وعَلِم، وكَتِف، وكَبِد، وعَصُر، واستمرار ذلك فى المضموم والمكسور دون المفتوح أدل دليل بفصلهم بين الفتحة واخفيتها على دونها من الحركات ، واستثقالهم بعضها واستخفافهم الاخر، فهل هذا إلا دليل على مراعاتهم للقدر اليسير من الأصوات، فكيف بالحروف بل الكلمة من جملة الكلام" (٤٨)

وإدراك ابن جني لأثر الحركة في الجرس وأثر الاثنين – معاً– في المعنى يفتح باباً أمام باحثي البلاغة كي يولوا البلاغة الصوتية التطبيقية عنايــة في بحــوثهم، وأن يدركوا أنّ الناحية الصوتية في تحليل أي نص لا تقل فى أهميتها عن دراسة البنيــة الصرفية أو العلاقة النحوية أو الدلالة اللغوية، فالمعنى اللغوى كيــان متكامــل لا يقف عند حدود المعنى المعجمي أو الوظيفة النحوية أوالمعنى الــدلالى ، فحركــة الهمزة المكسورة فى التعبير عن تباطؤ المنافقين في قولــه تعــالى "... إثــاقلتم إلى الأرض..." جزء من المعنى ، وفي حركة العين المضمومة فى وصف الوليد بن عتبة فى قوله تعالى:" عُتل بعد ذلك زنيم" دون الكسر أو الفتح ما يزيد المعنى غلظة على غلظة وثقلاً على ثقل، ولقد حاول ابن جنى وضــع معــاني ودلالات لأصــوات العربية، فنراه يذكر أن معنى القاف هو " الاصطدام" ومعنى الراء في أغلب وقوعها " التكرار والاستمرارية " نحو (مرّ– جرّ– خرير) ومعنى الغين إذا اجتمعت مــع الألف" الغيبوبة والاختفاء " نحو (غاب – غاص – غاض – غادر) ولكنه أدرك بحسه اللغوي أن معاني أصوات العربية لايحيط بها معجم ولا يحصيها عدّ، وقــد حاول بعده جورج زيدان فى العصر الحديث وضع معجم يتضمن معاني أصــوات العربية فخانته اللغة العربية وأعيته؛ لثرائها وتدفق عطائها.

ولايفوت ابن جني وهو يتحدث عن دور الحركة وأثرها في الجرس أن ينبه إلى أن خفة البناء اللفظي لا تنبع من قلة حروفه فقط ، وإنما تنبع من تــآلف حروفــه وانسجامها ، ولو كان الأمر راجعاً إلى قلة الحروف فقط لكان الثنــائي أخــف الأبنية وأكثرها دوراناً فى الكلام ، والواقع يشهد بغير ذلك ، فكما يقول ابن دريد في جمهرته: أن الثلاثي أكثر ما يكون فى الأبنية([٤٩])

ويعلل ابن جني هذه الكثرة التي تفوق الثنائي قائلاً: " وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفة فحسب ولو كان كذلك لكان الثنائي أولى منه ؛ لأنَّه أقل حروفاً ، وليس الأمر كذلك ... فتمكن الثلاثي إنَّما هو لقلة حروفه لعمري، ولشيء آخر ؛ وهو حجز الحشو الذي هو " عينه " بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما ... ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركاً ، وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً ، فلما تنافرت

حالهما وسّطوا العين بينهما لئلا يفجئوا الحس بضد ما كان آخذ فيـــه ومنصـــباً إليه"(٥٠)

وهنا لابد من تسجيل ملاحظة؛ وهي: أنَّه إذا كان طول الكلمة يبعدها عـــن الخفة والسهولة، ويؤدي بها إلى الثقل والصعوبة في النطق كما هو واضح فى بناء الخماسي والسداسي نحو كلمة " سويدوات " والخندريس " والفدوكس " فهـــل ينصرف ذلك الحكم على ألفاظ القرآن التي تفوق الخماسي والسداســـي نحـــو " ليستخلفنهم " و" أنلزمكموها" و " إثاقلتم" ؟! والجواب أن شواهد القرآن مـــع طولها لها أصول ثلاثية يرجع إليها وهى " خلف – ألـــزم – ثقـــل " بخـــلاف " سويدوات" وغيرها.

وفي النهاية تجدر الإشارة إلى أنَّ ابن جنيّ جمع في دراسته للأصوت بين الناحية الفسيولوجية التي تبع فيها الخليل وسيبويه ونصّ على ذلك في بداية كتابه " ســـر صناعة الإعراب" من صفات الحروف ومخارجها، وبين الناحية الوظيفية للصـــوت وأثرها فى خدمة المعنى، وهو أول من سمى هذا العلم بالأصـــوات ، وفـــرق بـــين الصوت والحرف ، وضع للصوت حداً يتفق مع طبيعة عصره وإمكانيته. وهـــذا يدل على شموليته ودقته وعمق ثقافته فى تناول الموضوعات اللغوية التى تدل على تفاعله مع قضايا اللغة.

ملامح البلاغة الصوتية عند أبي هلال العسكري (ت٣٩٥)هـ

يطالعنا أبو هلال العسكرى في آواخر القرن الرابع الهجري بملاحظاته الصوتية التي تبع في كثير منها الجاحظ، إلا أنّ الرجل كان –ـــ بحق – موفقـــاً في بعـــض الملاحظات التي تنسب إليه، ولعل من أهمّ ما يحمد له في هـــذا الصـــدد تحديـــده لمصطلحي " الفصاحة " و" البلاغة" حيث جعل الفصاحة مقصورة علـــى اللفـــظ والبلاغة مقصورة على المعنى ، وتلك خطوة مهمة في مجال الدراسات الصوتية التي تعتمد على الألفاظ وما يتصل بها من طبيعة المخرج والدلالة والجرس ، فنراه ينعت الألفاظ بنعوت هي في مجملها نعوت للأصوات من حيث الصفاء والبهاء وصـــحة

السبك والتركيب والخلو من التعقيد والسلامة والسهولة والإصابة والتخير وتلاؤم المخرج والعذوبة ، يقول أبو هلال :" وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأنَّ المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود اللفظ والتآليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التي تقدمت"([٥١])

وهذه أحكام عامة تتعلق بالألفاظ ، إلا أنها تعكس لنا مدى اهتمامهم بالبناء اللفظى بدءاً من مخرج الحرف وطبيعته، ومروراً بحركاته، وسكناته، وطول الكلمة، وقصرها، وإفرادها، وتركيبها ، وهذه معايير تتصل بالناحية الصوتية والتنغيمية ، ومن ثم يرى العسكرى كـ" الجاحظ" أن الشعر صناعة وضرب من النسيج ، ومن ثم يحتاج إلى الإيجاد والتحبير، فنراه يقول:" والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يستخف، وحسن لفظه ولم يهجن ، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً...وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجافية غريبة ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانباً، وأعزّ مطلباً، وهو أحسن موقعاً وأعزب منهلاً"([٥٢])

ومن أهم الملاحظات الصوتية التي تنبَّه إليها أبو هلال العسكري أنه ربط بين الفصاحة واللسان، وأن كل ما يقدح فى الأصوات يقدح فى الفصاحة، فإذا تتعتع اللسان فى مخرج التاء والفاء وغير ذلك من الحروف لا يسمى صاحبه فصيحاً عند استخدامه لهذه الحروف ، وإنما عليه أن يبعد عن الحرف الذى يدخله اللثغ، كما كان يفعل واصل بن عطاء، يقول العسكري:" الفصاحة تمام آلة البيان، والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين ؛ لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف ، وقيل زياد الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف ، وكان يعبر عن الحمار بالهمار" ([٥٣])

وعلى ذلك فكل ما يقدح في أصوات الألفاظ وجرسها وسلاستها وعذوبتـــها يخل بالفصاحة ؛ كما أخل صوت الراء بفصاحة واصل بن عطاء، وهذا ما أدركه واصل فكان يستعيض عن الكلمات التت تحتوى على حرف الراء بكلمات أخرى ومن ثم دخل الحديث عن الفصاحة حيز الدراسات الصوتية من هذا الباب، يقول ابو هلال:" وتخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب إلتئام الكلام ، وهـــو من أحسن نعوته ، وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوماً من حروف ســـهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه"(٥٤)

وردد العسكري ما قاله السابقون من ضرورة الاحتكام إلى حاســـتي الســـمع والتذوق عند إدراك القيم الجمالية والتنغيمية للصوت، إلا أنَّ قضية الاستحســـان عند العسكري لاتتعلق بطول اللفظة أو قصرها، بل مرد ذلك إلى خفـــة اللفظـــة وسهولتها عند النطق وقربها من النفس، وإن كنا نجد ذلك فى الأغلب الأعـــم فى أوزان الثلاثي كما سبق بيانه ، إذ هي في الحقيقة أخف من الرباعي والخماســـي ، إلا أن أبا هلال يدرك أن من الألفاظ ما يسهل رباعيه وخماسيه ويهمل ثلاثيه، وما ذلك إلا لسهولة اللفظة وخفتها حتى وإن خالفت القاعدة اللغوية، يقول أبو هلال العسكرى:" ومن الألفاظ ما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه، ومنها ما هـــو بخلاف ذلك فينبغى ألا تعدل عن وجه الاستعمال فيها ... ألا تـــرى أن النـــاس يستعملون " التعاطي " فيكون منهم مقبولاً ، ولو استعملوا" العطو " وهو أصـــل هذه الكلمة ، وهو ثلاثي _ والثلاثي أكثر استعمالاً_ لما كان مقبولاً، ولا حسناً مرضياً، فقس على هذا "(٥٥)

ولما كان الجرس يشتمل على قيم جمالية وتنغيمية بمـــا يوحيـــه مـــن دلالات وإيحاءات كان سريع التأثر بما يكتنفه السياق من تراكيب، بل لا أكون مبالغـــا إذا قلت بما تكتنفه اللفظة من حروف وحركات ، ومدار ذلك على السمع والتذوق ، ودليل ذلك أننا نرى الجرس يلين وهدأ نبرته فى سياق، ويشتد ويبلغ حدتـــه في سياق آخر، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما جاء في حديث أم زرع الطويـــل فقد وصفت إحداهما زوجها بقولها: المس مس أرنب ، والريح ريح زرنب ، وأنا أغلبه والناس يغلب ، فلا يخفى أن جرس الحروف قد أبرز المعنى وأبان عن طبيعـــة

زوجها ، وأنه يبلغ من الرقة مبلغاً لا يقل بحال عن رقة جرس " الميم – والسين – والهمزة – والراء – والنون – والباء " بخلاف قول الأخرى : زوجي عياياء طبقاء ، كل داء له داء " فإن جرس الحروف يوحى بغلظ قلب هذا الزوج وجفاء طبعه([٥٦]) وهذا ما جعل أبا هلال العسكري يفضل جريراً على الفرزدق؛ لتمكنه من أنواع الكلام واستلائه عليه حتى شاكل اللفظ صاحبه سهولة وليناً وجزالة وشدة ، يقول العسكرى:" والمقدم فى صناعة الكلام هو المستولي عليه من جميع جهاته ، المتمكن من جميع أنواعه ، وبهذا فضلوا جريراً على الفرزدق وقالوا : كان له فى الشعر ضروباً لا يعرفها الفرزدق " ([٥٧])

وهذا التمايز بين الوصفين من الرقة واللين في القول الأول والشدة والصلابة في القول الثانى يرجع إلى السياق الذى انعكس على أصوات الحروف فاستجاب الجرس لها باعتباره أداة تأثير حسية بما يحمله من دلالات معنوية تؤثر فى السامع.

هذا عن تأثر الجرس بالتركيب أم عن تأثر الجرس باللفظة فهذا واضح لمن له أدنى سمع وذوق، فكلما كانت حروف اللفظة متناهية فى الثقل متنافرة فى المخارج غير متداولة ولا مستعملة، ازداد الجرس قبحاً وقدحاً وبشاعة وشناعة ، ومن ذلك ما أورده أبو هلال العسكري عن بعض الأمراء وقد اعتلت أمه، فكتب رقاعاً وطرحها فى المسجد الجامع يقول فيها : صين امرؤ ورعي ، دعا لامرأة أنقحلة مقسئنة قد منيت بأكل الطرموق فأصابها من أجله الاستمصال أن يمنّ الله عليها بالاطرغشاش والابرغشاش "مما جعل العسكرى يقول :" فكل من قرأ رقعته دعا عليها ولعنه ولعن أمه" ([٥٨])

وقد يعترض على هذا الكلام بدعوى أن هذه الكلمات وما تحمله من جرس كانت مفهومة عند العرب، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، فهى ليست مذمومة على الاطلاق؟ ، والجواب على ذلك أن استعمال الوحشي مع من يفهمه ليس حسناً فى ذاته ، وإنّما استعماله جرياً على طرائقهم فى التعبير ، فالحسن لسبب خارج عنه، وهذا إذا كان مع من يفهمه، فكيف الحال مع من لم يفهم؟!

وفى النهاية يمكن تسجيل الملاحظات الصوتية التي انفرد بها أبو هلال العسكري عن الجاحظ فيما يتعلق بتأثر الجرس بالتركيب واللفظة، وكذلك استحسانه للفظة بغض النظر عن طولها وقصرها – وإن كنَّا فى الأغلب الأعم نجـد السـهولة فى الثلاثى دون غيره من الأوزان– ، ومما يضاف لجهود العسكري الصوتية حديثه عن آلة البيان وقصره الفصاحة على الألفاظ دون المعاني .

الملامح الصوتية عند ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)

لا يفوت الدراسة وهي تتلمس الملامح الصوتية في التراث النقدي أن تعـرض لابن سنان الخفاجي صاحب العقلية الناضجة والفكر المتوقد ، وأول مـن وضـع الحدود الفاصلة بين الفصاحة والبلاغة ، فجعل الفصاحة وصفاً خاصاً بالألفـاظ ، والبلاغة قاسماً مشتركاً بين الألفاظ والمعاني، وذلك فى قولـه: " والفـرق بـين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكـون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني" (٥٩)

ولما كانت الفصاحة وصفاً للألفاظ ، والألفاظ فى عرف المتقـدمين تعـنى " الأصوات " كما هو واضح من كلام الجاحظ السابق وغيره، فكل ما سجّلوه من ملاحظات من صفات الألفاظ ومخارجها وطبيعتها تعد ضمن الملامح الصـوتية، ومما يحسب لابن سنان الخفاجي فى هذا الباب أنه اشترط في الألفاظ أن تكون من حروف متباعدة المخارج ، وحجته في ذلك أن الأصوات تجري من الأسماع مجرى الألوان من الأبصار ، فكما أنّ البصر يدرك حسن الألوان عندما تكون متباعـدة غير متداخلة فكذلك الأسماع تدرك جمال اللفظة وحسنها إذا كانت من حـروف متباعدة ، فنجده يقول:" وعلة هذا واضحة؛ وهي أن الحروف التي هي أصـوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أنَّ الألـوان المتباينـة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة " (٦٠)

وابن سنان عندما اشترط البعد بين مخارج الأصوات لم يقل بالبعد المتناهي بين المخارج، وإنما اشترط مقداراً معيناً ومسافة محدودة ، لما في تناهي البعد من صعوبة في النطق وثقل على اللسان، بحيث تكون حركة اللسان أشبه بحركة القفز.

وتعقبه ابن الأثير بأن القاعدة ليست مطردة، حتى ولو كان شرط البعد بـين مخارج الحروف مما يعد أصلاً عند العرب ، ومما بنيت ألفاظ اللغة علية يقول ابـن

الأثير:" أما تباعد المخارج فإنّ معظم اللغة العربية دائرة عليه، لأنّ الواضع قسمها في وضعه ثلاثة أقسام: ثلاثياً، ورباعياً، وخماسياً، والثلاثي من الألفاظ هو الأكثر، ولا يوجد فيه مايكره استعماله إلا الشاذ النادر...لأنَّه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق؛ ألا ترى أنّ الجيم والشين والياء مخارج متقاربة وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثيتها الشجرية ، وإذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسناً رائقاً ، فإن قيل: " جيش" كانت لفظة محمودة ، ومما هو أقرب مخرجاً من ذلك الباء والميم والفاء ، وثلاثيتها من الشفة ، وتسمى الشفهية ، فإذا نظم منها شيء من الألفاظ كان جميلاً حسناً، كقولنا:" فم" فهذه اللفظة من حرفين هما: الفاء والميم ، وكقولنا: ذقته بفمي ، وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه... وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضاً ، ولو كان التباعد سبباً للحسن لما كان سببا للقبح؛ إذ هما ضدان لا يجتمعان ، فمن ذلك أن يقال :" ملع"... فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال، ينبو عنها الذوق السليم، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة" ([٦١])

ومن الملاحظات التي سجلها ابن سنان أيضا التي تضاف إلى رصيده أنه اعتمد حسن السمع شرطا من شروط الفصاحة، في الوقت الذي اكتفى من سبقه بمجرد الاحتكام إليه وفي ذلك يقول ابن سنان:" والثاني –ـ من شروط الفصاحة في اللفظة المفردة –ـ أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وإن تساويا فى الحروف المتباعدة كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه ... وليس يخفى على أحد من السامعين أنَّ تسمية الغصن غصناً أو فنَّاً أحسن من تسميته عسلوجاً ، وأنَّ أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع " ([٦٢])

واستحسان السمع أمر ذاتي يأتى بكثرة الممارسة وطول المداومة، فكما استحسن ابن سنان لفظ" الغصن" واستقبح لفظ" العسلوج" فإننا ندرك كذلك حسن لفظ" الأسد" وقبح" لفظ" الفدوكس" وكذلك حسن" لفظة " الخمر" وقبح" الخندريس" و حسن لفظ" الطويل" وقبح لفظ" القاق والقوق والطاط والطوط والسهلب ، كما استحسن ابن الأثير لفظ " السيف" على لفظ" الخنشليل" ولفظ " المدامة على لفظ" الإسفنط "([٦٣])

ملامح البلاغة الصوتية عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)

قد لا نتصور ونحن نتحدث عن الإمام عبد القاهر صاحب نظرية النظم التي تمثل مرحلة نضج البلاغة العربية أن يؤخذ عليه إهماله للجانب الصوتي، مما دفع غير باحث إلى القول بإنكار عبد القاهر لقيم الألفاظ الجمالية والتنغيمية ، فعبد القاهر عند الدكتور: إبراهيم أنيس ينكر الجمال فى جرس الأصوات ، ويرجع سر الجمال في الكلمة أو الكلام إلى دلالة الألفاظ ، ولا شك أن عبد القاهر _ فى حد تعبير الدكتور إبراهيم أنيس _ قد بالغ فى هذا مبالغة غير محمودة ؛ فجمال الجرس في الألفاظ أمر معترف به بين أهل الأدب ونقاده في كل الأمم، ولا معنى لإنكاره كما حاول عبد القاهر"(٦٤)

ويتفق معه فى الرأى الدكتور/ محمد زكى العشماوى قائلا:" ولكن الذى نؤاخذ عليه عبد القاهر أنّه في بحثه هذا الطويل ، والذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة ومكوناها الشعورية والمعنوية لم يفسح المجال لدراسة الجانب الصوتي في اللغة ودلالته على المعنى بشكل إيجابي ، فليس من شك من أنّ جانباً مهماً من التجربة فى الشعر مصدره الصوت والنغم" (٦٥)

والسؤال الذى تطرحه الدراسة : هل أهمل عبد القاهر الجانب الصوتي أم لا ؟ ، وإذا كان هناك إهمال فهل كان هذا لقلة جدوى الدراسة الصوتية أم لانشغاله بتقرير نظريته المعروفة بنظرية النظم ؟

والحقيقة أنّ عبد القاهر لم يهمل دراسة الجانب الصوتى ، فله جهد كبير في كتابه " المقتصد " لا يقل بحال عن جهود من سبقه كالخليل وسيبويه وغيرهما من طبقة اللغويين ، غير أن تناوله للقضايا الصوتية جاء تقليدياً ، يتسم في مجمله بالناحية الفسيولوجية التي عني بها اللغويون والقراء، وهذه مسألة قتلت بحثاً على يد من سبقه، في الوقت الذى كان ينتظر منه ترسيخ مفهوم الجرس كما رسخ مفهوم النظم فأطال الوقوف في " المقتصد" مع مخارج الحروف وحركاتها وطبيعتها وصفاها من الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإمالة والإدغام والأصوات الاحتكاكية والأصوات الانفجارية وغير ذلك مما يتعلق بالحروف، ونظرا لطبيعة الكتاب فقد جاءت هذه الملاحظات أقرب إلى المباحث الصوتية التقليدية التى تبع

فيها الخليل وسيبويه ، يقول أحد الباحثين :" من يطلع على الجـــزء الموجـــود في مخطوط " المقتصد" لعبد القاهر يره قد أحاط في وعي بجهود من سبقوه في حقـــل الدراسات الصوتية ، وأنه قد تصرف فيها تصرف المقتدر المالك لزمام البحـــث ، وإن كان داخل الدائرة التي رسم حدودها كتاب سيبويه ، وأنـــه إن خـــالف أو اختلف فلا يخرج عن تلك الحدود إلا بقدر، ويتضح أن جهود عبـــد القـــاهر فى عمومها تجعلنا نحكم بأن له مالهم وعليه ما عليهم فى كل ما أسفرت عنه أعمـــال الباحثين، وجاء تناول عبد القاهر لهذه الدراسات طبيعيا ، فلم يكن ليغفل شـــأنها وهو يقوم بشرح إيضاح أبى على الفارسى النحوى، ولا يغيب عن البال أن القسم الأخير منه شأنه شأن المصنفات النحوية التقليدية في عمومها قائم على المباحـــث الصرفية الصوتية التقليدية ، غير أن عبد القاهر قد أضاف إليها تلـــك الدراســـات الخاصة بالحروف ومخارجهاوتقسيماتهاوصفاتها" ([66])

ومن ثمّ أخذ عليه العالمان الجليلان عدم عنايته بالناحيـــة الوظيفيـــة للصـــوت ودورها في خدمة المعنى ، التي عني بها النقاد وبعض اللغويين أمثال الجاحظ وابـــن طباطبا والقاضي الجرجاني وابن جني والعسكري وابن سنان وابن الأثير وغيرهم، بالإضافة إلى ذلك: أنّ ظاهر كلامه في كتابيه " الدلائل" و" الأســـرار" يـــوحي بذلك؛ نظراً لسيطرة فكرة النظم عليه ومحاولة إثبات أن المزيّة ليست في اللفظـــة المفردة في ذاتها، وإنّما في تعلق الكلام بعضه ببعض وجعل بعضه بسبب بعض ولا يكون ذلك فى اللفظة المفردة وإنّما فى نظم الكلام بعضه مع بعض ، فنراه يقول:" فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمـــة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصـــريح اللفـــظ"([67]) ويقول فى موضع آخر:" واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك " ([68])

إذن فالألفاظ عند عبد القاهر لا يظهر التفاضل بينها إلا إذا ركبـــت، وتعلـــق بعضها ببعض، وأن الحكم على اللفظة بالسلاسة والسهولة والجزالـــة والفخامـــة وخفتها على السمع و قربها من النفس عند عبد القاهر منـــوط بحـــال تركيبـــها، وواهم من يظن تحقق المزيّة بهذه النعوت حال إفرادها، فنراه يقول:" وهل يقـــع في

وهم ــ وإن جهد ــ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظــر إلى مكــان تقعان فيه من التأليف والنظم ... وهل تجد أحداً يقول :" هذه اللفظة " فصيحة " إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعــنى جاراتهــا، وفضــل مؤانستها لأخواتها"([٦٩])

ولست معه فيما قال؛ فلا أحد ينكر قبح لفظ الفدوكس والخنشليل والبعــاق والقاق والقوق والطاط والطوط والسهلب والشوقب والشوجب... سواء في حال إفرادها أو تركيبها، وعلى ذلك فحسن اللفظة في سياقها متوقف علــى حســنها حال إفرادها.

لعل هذه النصوص وغيرها أغرت الباحثين بالقول بإنكار عبد القــاهر لقــيم الألفاظ الصوتية ، فى الوقت الذى كان ينتظر منه ترسيخ مفهوم الجرس – كمــا قلت – ولو سكت عبد القاهر لما أخذ عليه هذا المأخذ؛ إذ لا يؤاخذ العالم على ما لم يقله، وإنما يؤاخذ على ما قاله، ولست بصدد الدفاع عنه فهذا ما تقتضيه طبيعة الباحث ، فالباحث يبحث عن الحقيقة اتفقت مع ميوله أم اختلفت.

ولكن من الإنصاف أيضاً القول بأن عبد القاهر لم يرد أن يدور في فلك مــن سبقه، وأن يكرر ما قالوه، فإذا كان الجاحظ وابن طباطبا والقاضي الجرجاني وابن جني والعسكري وابن سنان وابن الأثير... وغيرهم قد فصلوا القول في نعــوت اللفظة المفردة ، وما يوحيه جرسها حال إفرادها ، فإنّ عبد القاهر أراد أن ينظــر للجرس حال التركيب، فأدخل الجرس وقيمه الجمالية في دائر النظم، وخير دليــل على ذلك أنه يسوق أمثلة وشواهد لبعض الكلمات تحسن في موضع وتقــبح في آخر قائلا:" ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر؛ كلفظ " الأخــدع" فى بيــت الحماسة:([٧٠])

تَلَفَّتُ نحو الحيِّ حتَّى وَجَدتُنِى * وَجِعتُ مِن الإصغَاءِ لِيتاً وأَخدَعَاً

وبيت البحترى: ([٧١])

وإنِّى وإن بَلَّغتَنِى شَرَفَ الغِنَى * وأَعتَقتَ مِن رِقِّ المَطَامِعِ أَخدَعِى

فإن لها فى هذين المكانين ما لايخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام:([٧٢])

يا دهرُ قَوِّم مِن أَخدَعَيك فَقَد * أَضجَجتَ هَذَا الأَنَامَ مِن خُرُقِك

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة... فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزيَّة والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً"([٧٣])

وإنما جاء الحسن في البيتين الأولين من جهة أنه أطلق الأخدع وأراد بقية الجسد، وهو تجوز غير متكلف يوحي بمدى المعاناة التي كان يعانيها البحتري وهو بعيد عن الفتح بن خاقان ، حتى أنه بجرد ما قرَّبه منه كان حاله كحال من أُعتق من الرق، بخلاف البيت الأخير ففيه من التكلف مالا يخفى كما سبق بيانه.([٧٤])

وفي النهاية تسجل الدراسة أنه لو أراد عبدالقاهر الوقوف مع قيم اللفظة المفردة لفعل ، وأكبر الظن أنه شغل بقضية النظم، كما يقول أحد الباحثين: " وعبد القاهر لا ينفي إقرار هذه النعوت في اللفظة المفردة، وإنما اللفظة لم تكن بغيته في البحث ، و لم ينظر في المفاضلة بين لفظتين تدلان على معنى واحد فى اللغة مثل " الليث" و" الأسد" ومثل " شحط" و" بعد" وأشباه ذلك لأنَّه قال :" لأنَّ كلامنا ـــ نحن – في فصاحة تحدث بعد التأليف دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة المفردة ، ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها، وموقف عبد القاهر من الفصاحة اللفظية أملته عليه نظريته البلاغية التي ربطها بالإعجاز"([٧٥])

ملامح البلاغة الصوتية عند ابن الأثير (ت٦٣٧هـ)

لا يكاد ابن الأثير يبدأ حديثه عن الفصاحة حتى يسجل اعتراضه على توصيف الفصاحة بالظهور والبيان دون الكشف عن أسباب هذا الظهور وذلك البيان قائلا:" وغاية ما يقال في هذا الباب : إنَّ الفصاحة هي: الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي ، ويقال: أفصح الصبح إذا ظهر، ثم إنهم يقفون عند ذلك ، ولا يكشفون عن السر فيه"([٧٦])

وإذا أمعنَّا النظر في كلامه وجدناه منطقياً؛ فهو يريد توصيفاً حقيقياً للكلمة الفصيحة ، وهذا ما حاول إثباته، فأرجع ذلك إلى كون اللفظة واضحة مفهومة، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت مألوفة الاستعمال ، ولا تكون كذلك إلا إذا حسنت في الأذهان دون غيرها من الألفاظ، يقول ابن الأثير:" إن الكلام الفصيح هو الظاهر البيِّن ، وأعني بالظاهر البيِّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا تحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وإنَّما كانت بهذه الصفة، لأنَّها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها" (٧٧)

وبهذه الأوصاف والنعوت للفظة المفردة دخل حديث ابن الأثير عن الألفاظ حيز الجانب الصوتي؛ لأنَّه يترتب على كلامه أن تكون هناك ألفاظ حسنة وأخرى قبيحة ، فما هي المعايير التي احتكم إليها في تمييز ذلك ؟ والجواب عنده: أن الألفاظ أصوات، والأصوات من الأمور المحسوسة بالأذن، وبالتالى يمكن الاحتكام إلى حاسة السمع، فما استحسنه السمع فهو حسن وما استقبحه السمع فهو قبيح، يقول ابن الأثير:" الألفاظ داخلة حيز الأصوات ، فالذى يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح، ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنَّه لا خلاف في أن لفظة " المزنة" و" الديمة" حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظة " البعاق" قبيحة يكرهها السمع، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتي" المزنة" و" الديمة" وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ " البعاق" وما جرى مجراه متروكاً لا يستعمل، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم" (٧٨)

وقضية الاستحسان والاستقباح أمر يرجع لجرس الحروف ومدى خفتها على اللسان أو ثقلها، ومدى تآلف حروفها وانسجامها أو تنافرها وتعارضها كما وضحه الجاحظ من قبل، فإن هناك بعض الحروف لا تقترن مع بعضها لا بتقديم أو تأخير يقول الجاحظ" فأمّا فى اقتران الحروف ، فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا

القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل بها على الغاية "(٧٩)

وهذا أمر إدراكه سهل ميسور يعرفه من له أدنى ذوق، ولا يجادل فيه إلا جاهل بحقيقة الأصوات وطبيعتها وصفاتها ومخارجها ، وفي ذلك يقول ابن الأثير:" وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم: إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك، وقال: كل الألفاظ حسنة ، والواضع لم يضع إلا حسناً ، ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة " الغصن" و" العسلوج" و" بين لفظة " المدامة" ولفظة " الإسفنط" وبين لفظة " اليسف" ولفظة" الخنشليل" وبين لفظة " الأسد" ولفظة" الفدوكس" فلا ينبغى أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه"(٨٠)

وعلى ذلك فالأصوات عند ابن الأثير تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولها نغم يجرى من السمع مجرى الطعوم من الذوق، والمعوَّل المحتكَم إليه في إدراك مثل هذه القيم الجمالية والتنغيمة الشعورية هما حاستي السمع والتذوق يقول ابن الأثير:" ومن له أدنى بصيرة يعلم أن لألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتاَ منكراً كصوت حمار، وأنَّ لها في الفمِّ أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم ... وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيد دون عمرو أو إلى عمرو دون زيد ، لأنَّه وصف ذوقي لا يتغير بالإضاقة ، ألا ترى أنَّ لفظة " المزنة" مثلا حسنة عند الناس كافة ــ من العرب وغيرهمــ وهلم جرًّا، لا يختلف أحد فى حسنها، وكذلك لفظة" البعاق" فإنها قبيحة عند الناس كافة ــ من العرب وغيرهمــ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مخرجا لها عن القبح ، ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها ، بل يعاب مستعملها ، ويغلظ له النكير حيث استعملها"(٨١)

وقد يقال لماذا يغلظ النكير لمن يستخدم مثل هذه الكلمات ما دام القوم يفهمونها كما هو الحال فى الكلمات الوحشية التي يستخدمها العرب ؟

والجواب أن استخدام العرب لهذه الكلمات الوحشية لا ينفي عنها قبحهاً ولا يوجب لها مزية أو حسناً ، وإنَّما استعملت لأمر خارج عنها، ومــن المعلــوم أن الحسن يجب أن يكون صفة ذاتية في الكلمة الفصيحة من حيث حركاها وسكناها وعذوبتها وسلاستها ورقتها وجزالتها وقربها من النفس وخفتها على السمع .

ويذهب ابن الأثير إلى أبعد من ذلك ويسجل ملاحظتــه الصــوتية المتعلقــة بأجراس الألفاظ وتلاحمها مع السياق جنباً إلى جنب، بحيث تفضــي إلى تحقيــق الغرض المسوق له الكلام ، ويتطلبها السياق ويقتضيها المقام ، فيحتــد الجــرس وتعلو نبرته تارة ويهدأ ويلين جانبه تارة أخرى ، وهو فى كلا الحــالين مطلــب سياق ومقتضى مقام، ويبيّن ذلك ابن الأثير قائلا: " وسأبيّن لك ما تعتمد عليه فى هذا الموضع فأقول: الألفاظ تقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منــهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحــروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأمَّا الرقيق منها فإنَّه يستعمل في وصــف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات وملاينــات الاســتعطاف ، وأشباه ذلك ، ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متــوعراً، عليــه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته فى الفمِّ ولذاذتــه فى السمع ، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً ، وإنَّما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس" (٨٢)

وكلام ابن الأثير يعد ملاحظة هامة فى ميدان البلاغة الصــوتى؛ فهــو ينظــر أجراس الحروف وأصواها على أنها من صميم البلاغة ، غير مكتف بالتنظير، بــل أكثر من الأمثلة والشواهد فنراه يقول:" انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط ، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وماجرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشي الألفاظ، ولا متوعراً، ثم انظــر إلى ذكــر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ، فإنَّك لا ترى شيئاً من هذا ضعيف الألفــاظ ولا سفسفاً ؛ فمثال الأول : وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى: " وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٨٣)

فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة ، وانظر هل فيها لفظة الإ وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة... وأما مثال الثانى : وهو الرقيق الألفاظ فقوله تعالى في مخاطبة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى *ووَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ"(٨٤) وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(٨٥) وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة ، وكذلك كلام العرب الأول في الزمن القديم" (٨٦)

الخاتمة

يطيب لي بعد معايشتي لهذه الدراسة أنَّ أسجل ثنائي لله رب العالمين الذي وفقني لاختيار هذا الموضوع الذي أبصرت من خلاله بعض جهود علمائنا القدامى في البلاغة الصوتية ، وهوفرع أولته الدراسات الأسلوبية الحديثة اهتماماً بالغاً، وحظي لدى المحدثين بكتابات متعددة؛ باعتباره وسيلة من وسائل تحليل النص، وأداة فاعلة في الكشف عن أغراضه، وما يحمله النص من رسائل ومضامين تجاه المتلقي، بيدا أنَّ هذا الاهتمام وهذه العناية ليست مبتكرة أو حديثة عهد، حتى وإن روَّج لهذا دعاة الحداثة والتغريب، فكم من مقايس صوتية نادى بها المحدثون ،

وكم من نظريات رددها الغربيون لا تعدو إلا أن تكون فهماً وتقعيداً لما توصل إليه النقد العربي القديم من معارف ، فقد تنبه علماؤنا القدماء إلى بعض الأمور وتفاعلوا مع بعض قضايا لغتهم وسجلوا في ذلك ملاحظاتم وتعليقاتهم التي أفاد منها الدرس اللساني الحديث، ولعل فيما يلي من نتائج مايؤيد ذلك: -ـ

١- اعتمد النقاد القدامى فى إدراك قيم اللفظ الجمالية والتنغيمية على حاستي السمع والتذوق؛ حيث نادى بذلك أكثر من ناقد أمثال الجاحظ وابن طباطبا والقاضي الجرجاني وابن الأثير والعسكري وابن سنان وعبدالقاهر...

٢ - حديث النقاد عن الناحية الصوتية يتسم بالملمح الوصفي الذي يعتمد على الناحية الوصفية بعيداً عن المعيارية ، فهم لم يعنوا بوضع ضوابط لاكتشاف قيم اللفظ الجمالية والشعورية، وإنما أرجعوا ذلك إلى الذوق السليم، وهذا فى مجمله يتفق مع ما تنادى بها اللسانيات اللغوية العامة في دراسة اللغة من الاعتماد على المنهج الوصفي والبعد عن المعيارية والتنظير والتقعيد.

٣- في حديث ابن جني عن الصوت ما يؤكد معرفة العرب بعلم الأصوات الوظيفي ، أو ما يعرف بالعنصر الوظيفي الذي يقوم به الصوت فى تأدية المعنى وخدمة الفكرة ، ناهيك عن معرفة ابن جني بالناحية الفسيولوجية التي تعتمد على مخارج الحروف وصفات كل حرف .

٤ - جاء حديث النقاد عن الأصوات مخالفاً لما عرف عند القراء واللغويين ، حيث اهتم النقاد بقيم الألفاظ الجمالية ومعايير الجودة فيها في حين جاء حديث القراء وعلماء اللغة عن الأصوات امتداداً للناحية الصوتية التقليدية ، ولم يخالف في ذلك إلا العلامة ابن جني فقد تنوع حديثه بين الناحية العضوية للصوت وبين قيمه الجمالية والشعورية التي تسهم فى التعبير عن المعاني والأعراض.

٥ - ظهر من خلال هذه الدراسة قلة المباحث الصوتية الوظيفية عند الإمام عبد القاهر، حتى وإن أنكر البلاغيون ذلك ، فتناول الإمام عبد القاهر للقضايا الصوتية في كتابه -ـ المقتصد - سلك فيه مسلك اللغويين التقليديين ، ولم يسلك فيه مسلك النقاد .

وفي النهاية توصي الدراسة بضرورة تضافر الجهود في مجال الدراسات الصوتية، سواء في ذلك الدراسات النقدية أو الدراسات التطبيقية ، فكتب النقد مليئة بالملاحظات النقدية التي تستحق الدراسة ، وكذلك دواوين الشعراء حافلة بالظواهر الصوتية التي تستنفد طاقات الباحثين دون أن يقفوا على سر بلاغتها وتنوع دلالتها.

المراجع والمصادر

البيان العربي" للدكتور/ بدوي طبانة الطبعة الخامسة – دار العودة – بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق/ د: علي بوملحم – دار ومكتبة الهلال – بيروت – ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢.

جرس الألفاظ ودلالتها فى البحث البلاغي والنقدي" للدكتور/ ماهر مهدى هلال – دار الرشيد للنشر – بغداد – ١٩٨٠

جمهرة اللغة للعلامة أبي بكرمحمد بن الحسن بن دريد ـ دار المعارف – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٣٤٥هـ

الخصائص لابن جني – تحقيق/ عبد الحكيم بن محمد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون تاريخ

دراسات في علم اللغة ـ د/ كمال بشر– دار المعارف – القاهرة – ط/ الثانية – ١٩٨٦م.

دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق/ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي – تحقيق/ محمد عبد عزام – دار المعارف – القاهرة – ط/ الخامسة

ديوان امريء القيس – شرح د: محمد الاسكندراني/ د: نهاد رزوق ـ دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ١٤٣٢هـ ٢٠١١م

ديوان البحتري – دارالكتب العلمية – بيروت – ط / الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

ديوان علي بن الجهم – تحقيق/ خليل مردم – دار التراث العربي – بيروت –

سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني – الجزء الأول – تحقيق ـ أحمد فريد أحمد – المكتبة التوفيقية – القاهرة –

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي الحلبي – تحقيق/ الدكتور: النبوي عبد الواحد شعلان – دار قباء – القاهرة – ٢٠٠٣م .

الصناعتين – تحقيق د/ مفيد قمحة، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت – الطبعة الثانية – ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني د/ البدراوي زهران – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة– ٢٠٠٥م

عيار الشعر تأليف محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ــ تحقيق/ عباس عبد الساتر- دار الكتب العلمية - بيروت - ط/ الثانية - ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
فتح الباري شرح صحيح البخاري ــ تأليف / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ــ دار الريان للتراث ــ القاهرة - ط/ الثانية - ١٩٨٦م.
فن القول" للدكتور/ أمين الخولي ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٦٦هـ ١٩٦٩
قضايا النقد الأدبي والبلاغة ــ الدكتور: محمد زكي العشماوي - مطبعة الوادي ــ القاهرة ــ ١٩٦٧م
المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ المكتبة العصرية ــ بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٥م
موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ ٤٦ - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٥ ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة.
الموشح للمرزباني - تحقيق علي محمد البجاوي ــ مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة - ١٩٦٥م
الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد االعزيز الجرجاني ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية ــ صيدا - بيروت - ١٩٨٦ .

الهوامش والإحالات :

١ - من الدراسات التي أتيحت لي قراءتها " فن القول" للدكتور/ أمين الخولي - مطبعة الحلبي - ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م ــ القاهرة - و" البيان العربي" للدكتور/ بدوي طبانة- دار العودة ــ بيروت - ط/الخامسة - ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م - و" جرس الألفاظ ودلالتها فى البحث البلاغى والنقدي" للدكتور/ ماهر مهدى هلال ــ دار الرشيد - بغداد - ١٩٨٠ م .

٢ ــ من هذه الإشادات ما قاله "فريث" :" لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت فى أحضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية " وما قاله" برجشتراشر:" لم يسبق الأوربيين في هذا العلم إلا قومان : العرب والهنود " ينظر كتاب دراسات في علم اللعة ــ د/ كمال بشر- دار المعارف ــ القاهرة - ١٩٨٦ صـ٦٧

٣ - البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق د/ علي بوملحم ــ دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ــ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م - جـ٢ صـ٧ بتصرف

٤ - ينظر الموشح للمرزباني ــ تحقيق/ علي محمد البجاوي ــ مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة ــ ١٩٦٥م ص٧٥

٥ - المثل السائرفى أدب الكاتب والشاعرلابن الأثير ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م - جـ١ صـ١٥٧

٦ - ينظر الموشح صـ ٧٥

٧ - ينظر كتاب الصناعتين صـ ٨٣ ، تحقيق د/ مفيد قميحة- طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، والمراد بقوله :أكنت أتصدق؟! أي أطلب صدقة.

٨ – البيان والتبيين جـ١ صـ١٣٥
٩ – البيان والتبيين جـ١ صـ١٣٦
١٠ – البيان والتبيين جـ١ صـ١١٢
١١ – البيان والتبيين جـ١ صـ١٤٨
١٢ – البيان والتبيين جـ١ صـ١٤٨
١٣ – البيان والتبيين جـ١ صـ ٧٧
١٤ – المراد بالتشمير: التقلص، والمراد بقصر السمك: قلة ارتفاع اللحم المحيط بالأسنان، وإنما عدّ ذلك عيباً لما يحدثه من فراغ بين الأسنان والأضراس ينتج عنه صفير عند النطق.
١٥ – البيان والتبيين جـ١ صـ٧٢
١٦ – البيان والتبيين جـ١ صـ ٦٩
١٧ – المراد بالفأفاء هو الذي يتتعتع في مخرج الفاء ، والمراد بالتمتام : هو الذي يتتعتع في مخرج التاء. ينظر البيان والتبيين صـ٥٤ جـ١ بتصرف
١٨ – البيان والتبيين جـ١ صـ ٥١
١٩ – البيان والتبيين جـ١ صـ ٥٦
٢٠ – البيان والتبيين جـ١ صـ٨٤
٢١ – جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب – د : ماهر مهدي هلال ـ ص٥٥
٢٢ – البيان والتبيين جـ١ صـ ٤١
٢٣ – المثل السائر جـ١ صـ١٥٥
٢٤ – ينظر عيار الشعر / تأليف محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفى / تحقيق عباس عبد الساتر– دار الكتب العلمية ـ بيروت – ط/الثانية – ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م صـ٢٠
٢٥ – كتاب الصناعتين صـ٧٢ بتصرف
٢٦ – جرس الألفاظ ودلالتها – تأليف / الدكتور– ماهر مهدي هلال ـ صـ ١٩ بتصرف
٢٧ – عيار الشعر صـ٢٠
٢٨ – جرس الألفاظ ودلالتها صـ٧١
٢٩ – الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ المكتبة العصرية – صيدا ـ بيروت – ١٩٨٦م صـ٣٤٢ بتصرف
٣٠ – الوساطة بين المتنبي وخصومه صـ٢٤ ،صـ٢٥
٣١ – الديوان صـ ١٤٣، تحقيق خليل مردم ، طبعة التراث العربي – الطبعة الثانية ـ بيروت ـ لبنان.
٣٢ – القصة موجودة في هامش المحقق السابق
٣٣ – الأخدع: عرق في العنق .
٣٤ – ينظر الديوان صـ٣٤٤ – والفرجة : السعة ، واللبب : المنحر وهو صفحة العنق

٣٥ - الوساطة صـ ٦٩ والبيت فى الديوان صـ٤٠٥ - المجلد الثاني - شرح الخطيب التبريزي / تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط الخامسة ـ وكلمة (من) لا وجود لها فى البيت.

٣٦- الوساطة صـ ٦٩ والبيت فى الديوان صـ٢٧ والعود : المسن من الإبل ، وفى الديوان " قوداً" .

٣٧ - ينظر الموشح صـ ٧٥

٣٨ - الديوان صـ٣١ - شرح د: محمد الاسكندراني/ د: نهاد رزوق - دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٣٢هـ ٢٠١١م

٣٩ - الوساطة صـ٣٥٨، ٣٥٩

٤٠- الوساطة صـ ٦٩ والبيت فى الديوان صـ٢٤٩

٤١ - تكون الياء للمتكلم إذا أريد به المفرد، أما إذا أريد الأخدعان معاً، فتكون الياء علامة نصب، وحذفت النون للإضافة.

٤٢ - سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني صـ ٢١ - الجزء الأول - تحقيق ـ أحمد فريد أحمد - المكتبة التوفيقية - القاهرة .

٤٣ - سر صناعة الإعراب صـ ١٩، ٢٠ - الجزء الأول

٤٤ - جرس الألفاظ ودلالتها صـ٢٧

٤٥ - الخصائص تحقيق / عبد الحكيم بن محمد - المكتبة التوفيقية - القاهرة - صـ٣٣ جـ١

٤٦ - الخصائص لابن جني ـ جـ١ صـ ٧١

٤٧ - الخصائص جـ٢ صـ ١٠٨ ـ وينظر كذلك صـ ١٠٤ بتصرف.

٤٨ - الخصائص جـ١ صـ٧٩

٤٩- جمهرة اللغة للعلامة أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد - الطبعة الأولى - ١٣٤٥هـ - ط/ دار المعارف العثمانية - حيدر آباد - جـ١ صـ ١٣

٥٠ - الخصائص جـ١ صـ ٦٣ بتصرف.

٥١ - الصناعتين أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري صـ٧٢ ـ تحقيق د/ مفيد قميحة - دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

٥٢ - الصناعتين صـ٧٤، ٧٥ بتصرف

٥٣ - السابق صـ ١٦ ـ ١٧

٥٤ -ـ كتاب الصناعتين صـ١٥٩

٥٥ - كتاب الصناعتين صـ١٦٧

٥٦ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - تأليف/ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ دار الريان للتراث والحديث - القاهرة - ط/ الثانية - ١٩٨٦ - رقم ٤٨٩٣ ـ صـ ١٦٤

٥٧ - الصناعتين صـ ٣٣

٥٨ - الصناعتين صـ٥٦ ـ ٥٧ ـ والمعنى : صان الله ورعى من دعا لامرأة مسنة يبس جلدها على عظمها ، قد أصيبت بأكل الطين فأصابها الإسهال أن يمن الله عليها بالشفاء .

٥٩ – سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي – تحقيق د: النبوي عبد الواحد شعلان – دار قباء ــ القاهرة – ٢٠٠٣م – صــ٦٧
٦٠ – سر الفصاحة صــ٧٤
٦١ – المثل لسائر جــ١ صــ١٥٨ ، ١٥٩
٦٢ – سر الفصاحة صــ٧٥ بتصرف
٦٣ – المثل السائر جــ ١ صــ ١٥٥
٦٤ – موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صــ ٤٦ – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة– ١٩٦٥ ــ الطبعة الثانية
٦٥ – قضايا النقد الأدبي والبلاغة ــ د: محمد زكي العشماوي – مطبعة الــوادى – القاهرة ــ ١٩٦٧م – صــ٣٣٣
٦٦ – عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني د/ البدراوي زهران – دار المعارف – القــاهرة– الطبعة الخامسة ــ ٢٠٠٥صــ٨٢
٦٧ – دلائل الإعجازلإمام عبد القاهر الجرجاني ــ تحقيق/ محمود محمد شاكرــ مطبعــة المدني ــ القاهرة ــ ط/ الثالثة / ١٤١٣هــ ١٩٩٢م صــ ٤٦
٦٨ – الدلائل صــ ٥٥
٦٩ – الدلائل صــ ٤٤ بتصرف
٧٠ – البيت للصمة بن عبد الله القشيري في شرح حماسة أبي تمام للتبريزي جــ٣ صــ ١١٤ ، والليت : صفحة العنق ، و" الأخدع " عرق عي العنق
٧١ – البيت فى الديوان صــ٩٠ ــ الجزء الأول ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٤٠٧هــ ١٩٨٧م
٧٢ – البيت فى الديوان صــ٤٠٥ ، وقد سبق تخريجه صــ ١٦ من هذا البحث، والخرق : الحمق
٧٣ – الدلائل صــ٤٦ ــ ٤٨ بتصرف
٧٤ – ينظر ص١٦، ١٧ــ من هذا البحث
٧٥ – جرس الألفاظ ودلالتها صأ ١١٠ ، صــ١١١
٧٦ – المثل السائر جــ ١صــ ٨٠
٧٧ – المثل السائر جــ١ صــ81
٧٨ –ــ المثل السائر جــ١ صــ81
٧٩ – البيان والتبيين جــ١ صــ ٧٧
٨٠ – المثل السائر جــ ١صــ155
٨١ – المثل السائر جــ١ ص١٥٧
٨٢ – المثل السائر جــ١ صــ172
٨٣ – سورة الزمر الآيات ٧٢ – ٧٥
٨٤ – سورة االضحى الآيات ١ – ١١
٨٥ – سورة البقرة الآية ١٨٧
٨٦ ــ المثل السائر جــ١ صــ ١٧٣ ، ١٧٤